وقفة على الدرب

بقلم محمود البدوى

كان الجو صيفا وطريق الاسكندرية الزراعى مزدحما بالسيارات الذاهبة اليها والراجعة منها ... وكانت السيارات الخاصة تمرق كالسهام من بين اللوريات الضخمة المحملة باكياس القطن والواح الخشب وقناطيس البترول .

وكان الطريق الممهد كخط من الديباج يساعد على هذه السرعة ويضاعف منها كلما احس السائق بان الزمام فى يده .

وكنت مسافرا فى هذا الطريق ساعة الغروب مع اربعة من الركاب ولم اكن اعرف منهم احدا ، فى سيارة أجرة أخذناها من ميدان المحطة .

وكانت الحرارة شديدة حتى بعد ان مرت الشمس فجلسنا صامتين . ثم فتح احدنا الحديث بعد ان تجاوزنا مشارف المدينة وأخذ يتحدث عن زحام القطارات المسافرة الى الاسكندرية فى هذه الأيام واستحالة حجز تذكرة فى يوم السفر .

وكانت السيارة تمضى بنا على سرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة وظروف الحال كلها تدل على أننا سنبلغ طنطا فى الساعة التاسعة والنصف والاسكندرية بعد الحادية عشرة .

وهي حدث ما لم يكن في الحسبان ..
اذ تعطلت بنا السيارة ونحن على صعدة سبعة فراسخ من طنطا وحاول السائق اصلاحها بكل وسيلة فلم يوفق ومع ذلك لم ييأس وظل يعمل بيديه في جلد عجب .

وظهر الضجر على وجوه الركاب الأربعة فعصوا أيديهم من السائق واعطوه نصف الأجر .. ومر لوري فاستوقفوه وبعد محاورة قصيرة رضي سائقه ان ياخذهم جميعا وانطلق بهم .

وتخلفت عنهم اذ كنت في الواقع ابغي ركوبة افضل وفي الوقت عينه سمعت محرك سيارتنا يدور في نفس اللحظة التي ركبوا فيها اللوري وقدرت أن السائق وضع يده على مكان العطب وانا سألحق بهم بعد قليل .

ولكن خاب ظني اذ كان الموتور « يحبط » ثم توقف مرة اخرى ..

وقال لي السائق وعلى وجهه آثار المعركة التي خاضها مع المحرك ـ لا فائدة في القبيل .. والصبح له عينان ... وآسف جدا لهذا العطب الذي يحدث لكل آلة ..

ثم استطرد وهو يرمي ببصره في الظلمة .. محاولا أن يستشف معالم الطريق .

ـ عندما يمر لوري سأحاول ايقافه لتركبه اذ ان السيارات الخاصة لا تقف قط .. وانتظرنا اكثر من ساعة ولم يرض سائق لوري او عربة خاصة ان يقف في عتمة الليل .

وسألته وأنا أحس بالقلق :

ـ الا توجد قرية على مقربة منا ..؟

ـ بركة السبع قريبة جدا .. وهناك مركز صغير لاصلاح الاطارات على مدى فرسخ واحد .. واذا سرت اليه قد تجد سيارة .. واذا لم تجد السيارة وجدت الشاي والطعام .. انه موقع احسن من هنا على كل حال .. !

ـ وانت .. ؟

ـ سأنام في السيارة الى الصباح .. اعتدنا على هذا .. !! وفي الصباح يأتي الفرج ..

ـ سأذهب واري .. واذا وجدت طعاما سأحمل لك بعضه ..

ـ شكرا ..

وتقدته ما يرضيه من الأجر .

وقال وعلى وجهه الصبر والقناعة :

ـ مع السلامة .. ابعد عن سكة السيارات ..

وسرت وحدى فى الطريق فى ليلة تلمع فيها النجوم والسماء فوقى رقراق صافية وكان القمر فى المحاق ـ والعتمة تبدو شديدة لأن الزراعة عالية والأشجار الطويلة على الجانبين تضاعف من خطر الظلمة .. ولكنى شعرت بالقوة والانطلاق وأنا أسير فى قاب الطبيعة تحت السماء وبين الحقول . كنت أحس بالحرية التى يحسها كل انسان واشعر ان لا سلطان لأحد على اطلاقا .. وانى ادفع الهواء بصدرى وأتحرك بكل حريتى .. وكان الهواء الذى بدا يترطب يعطينى رئتى وينعشنى وعيناى تسبحان فى الظلمة الشاحبة وترقبان السماء الصافية فى تأمل المستغرق بحواسه فى جمال الكون .

• • •

وملت عن طريق السيارات خشية أن أصرع تحت عجلاتها ولا يحس بى انسان واحسست بانفاس الزرع وأنا اقترب من الحقول المزهرة على الجانبين كانت الأذرة فوق مستوى كتفى .. والأرض لا تزال حارة .. ورائحة التراب تختلط مع انفاس الحشائش .. ولمحت ضياء قرية عن بعد ونسيما من النور يتصاعد من كوات المنازل .. فحدثت انها تركة السبع التى حدثنى عنها السائق .

وكان مجرد احساسى بأنى اقترب من البيوت ومن أنفاس الحياة حافزا لى على الاسراع فى الخطو ـ ولم أشعر بالخوف وانا أسير وحدى فى الليل فى ظلمة مطبقة وسكون موحش .. فقد اعتدت على هذا وألفته .. وفى خلال عشر دقائق من السير الحاد .. ولم أقابل شخصا فى الطريق ولا فلاحا فى الحقل .

وكنت مخففا من كل حمل فلم تكن معى حقيبة ومن عادتى ان أذهب الى الاسكندرية هكذا لأركب القطار أو السيارة فى الساعة التى أجد فيها أيهما فى متناول يدى ..

وأكسبنى الليل والسير فيه وما فيه من غموض ورهبة شعورا عارما بالقوة . وكنت وانا اتخطى الحقول وأختار مزارع الأذرة والخضر .. أحس بيد الفلاح القوية فى الأرض .. وأدركت وأنا اتنفس مع أنفاس الزرع لماذا يحس الفلاح بحريته كاملة كلما خرج الى الحقل وعرف ان سماء الله هى التى تظله وأرضه هى التى يقف عليها .. ويعيش من خيراتها ..

وفى كيه من التأمل الذى استغرق حواسى عبرت على نهيل كثيفا من الشجر وتركه ماء بين الأشجار .. وكان ماؤها يبدو فى ظل العتمة راكدا بلا حياة ولمحت نورا ضئيلا ينبعث من كوخ وراء الركة .

وسرت فى « ملق » بين المزارع ... ولما وقفت على حافة الحقل .. لمحت البيت بين كثيف من أشجار النخيل . وظللت فى مكانى وانا أؤمل ان ابصر دلائل الحياة .

كان الهواء رخيا ... وكومة من النبن هناك فى حقل محصود .. ثم رأيت

حراما ومحميات . وبقرة مربوطة فى وتد .

ولما اقتربت اكثر من البيت رأيت فى العتمة شبح كلب يزمجر .. فانحنيت لأتناول طوبة أرميه بها .. فركبه الشعار ودار حول نفسه فى وحشية أرعبنى . واحسست بأنى أمام شىء رهيب لا قوة لى عليه .. فوقفت فى مكانى وقد شلت كل حركة فى جسمى .. وفى خطف البرق أحسست بأنياب الحيوان تهش كتفى ووقعت على الأرض .. وفى نفس اللحظة دوت طلقة نار .. واغمضت عينى ..

• • •

ولما فتحتهما وجدت رجلا يقف على مكان فوق رأسى .. وكان لا يزال بيده البندقية القصيرة التى اطلق منها النار .

وقال باسما :

ـ لا تخف فقد انتهى ..

وتأملت الحيوان صريعا على مدى امتار .. وكان الرجل الذى صرعه قد استدار ومشى على عكازه يضع خطوات وهتف بشخص فجاء هذا سريعا .. وتحاملت عليه .. حتى أدخلنى فى رواق البيت .. وغسل الجرح وحشاه « بالبن » وكان النزف لا يزال يترف وشعرت بضعف شديد .. ولابد من الطبيب فى هذه الساعة .. فأرسل نفس الشخص سريعا لياتى بطبيب الوحدة المجمعة .

• • •

ورحت أجيل بصرى فى القاعة .. كان الضيف قد أراحنى على دكة تحتها حرام ووضع فوق ظهرى وسادة محشوة بالقطن .. ولكنى احسست بالسرور فى جسمى رغم الاصابة ورغم أنا فى الصيف .. من فرط الدم الذى نزف منى .. وبعتمة فى مشاعرى .. وبآلام لا حد لوصفها .. وراحت أفكارى تحوم .. ورحت من فرط التعب فيما يشبه النعاس .. حتى صحوت على صوت الطبيب .. وهو يضمد الجرح ..

وقلت للطبيب :

ـ اخشى ان يكون الكلب مسعورا .. وفى هذه الحالة لابد من الذهاب الى مستشفى الكلب .. والعلاج طويل .. !!

فقال بهدوء وهو يتمتم :

ـ اطمئن انه ليس بكلب ..

ـ ماذا .. ليس بكلب .. ؟!

ـ نعم انه وحش ..

وفتحت عينى مدهوشا .. وسمعت صوت الرجال فى الخارج .. ثم رأيتهم من فرجة الباب يسحبون شيئا على الأرض ..

وسألت الطبيب :

ـ هل هو الوحش .. ؟

ـ انها البقرة .. صرعت من نفس الرصاصة ...

ـ من نفس الرصاصة .. ؟!

ـ اجل . كان لابد من هـــذا لتعيش .. !

ـ ولكن الرجل لم يحدثني بشيء من هذا .. وخيل الى تصور انه كلب ..

ـ هذا هو الفلاح ..

واخذت افكر في البقرة وتمنيت انهـا تساوي ١٥٠ جنيهـا وربما كانت « عشارا » وتساوي اكثر من هـذا وصرعها الرجل بيده .. وربما ليس عنده سواها .. من اجل غريب لا يعرفه .. وما رآه من قبل قط في حياته .. وعجبت ولكن عجبي زال بعد لحظات من التامل لانني افكر بعقلية رجل المدينة ولا اعرف الفلاح .. انه اعتاد على هذه الأشياء .. وعندما تنزل به المصيبة يصبر في الغوض ولا يقنط من رحمة الله .

انه يتلقى النوازل بقلب صلد .. فهو يزرع الأرض ويأكل زرعه الدود ..

ويزرع الأرض ويصيبه « المن » .. ويزرع ويصيبه « الهاوك » .. ويزرع ويصيب زرعه العطش .. ويزرع ويحرق زرعه أو يجرفه السيل أو تحرق أحرائه ولكنه مع كل ذلك يزرع ويظل يزرع لأنه يعرف بفطرته سر الحياة .. والحياة حركة ومن يتوقف يموت .. ولهذا بقي الفلاح المصري وعاش في الأرض .. وكان حتى في أشـــد عصور الظلام يشعر بقوته .. في أعمق أعماق نفسه .

ولهذا عندما اقتنع الصياد وازيح التراب انهض كما هو الآن .

واستمعت من سوانحي على صوت الطبيب وهو يطلق حقنتـــه الصغيرة ويقول :

ـ سآتي مرة أخرى في الضحى .. لأمر على الجرح وأعطيك حقنة ..

ـ واستطيع ان اتحرك بعد ذلك ..

ـ سنرى .. بعد الكشف ..

وتركني .. وأحسست بالنعاس .. وبان الألم بدأ يخف ..

ولما فتحت عيني في اشراقة الفجر .. كان الرجل الذي لا أعرفه حتى اسمه يقف على باب القاعة معتمدا على عكازه يقف حارسا وما احسبه استراح ولا هنى ساعة واحدة في هذه الليلة ..